

النزعة القومية وموقف الشعراء العرب منها قبل الحرب العالمية الأولى وفترة ما بين الحربين

الدكتورة منصورة زركوب
عضو الهيئة العلمية - كلية اللغات الأجنبية

إن النزعة القومية قد برزت في الأدب العربي منذ العصر الجاهلي في الإطار القبلي الذي يمثل الشعور القومي، فكان الجاهليون يفخرون بانتمائهم القومي لقبائلهم ويبرز الشعراء هذا الاتجاه في أشعارهم. ثم تطورت هذه النزعة على مر التاريخ من الإطار القبلي إلى الكيان القومي وأصبحت شعوراً وحاسة في العالم العربي بينما نشأت في الغرب كتيار أيديولوجي سياسي، اجتماعي من ثورة الفرنسية.

لهذه الحركة القومية التي ظهرت بوادرها في الأدب الحديث في القرن التاسع عشر مميزات تمتاز بها عن نفس الحركة في الغرب. منها أن القومية أصبحت موضوعاً بارزاً من موضوعات الأدب ينطوي على تصدي الشعراء للحكام والتنديد باستبدادهم وفساد حكمهم والنضال ضد الاستعمار. في الوقت الذي لم يكن الأدب الغربي يعرف هذا النوع من الشعر لأن الأوروبيين لم يبتلوا بالاستعمار. ومنها أن القومية امتزجت فترة من الزمن - وهي قبل الحرب العالمية الأولى - بالنزعة الدينية. لأن البعض كانوا يؤمنون بالاتحاد تحت ظل الخلافة العثمانية شرط أن تقوم هذه الخلافة بالإصلاحات اللازمة. أما الشعراء فقد برز موقفهم من هذه الحركة سواء كانت قبل الحرب الأولى أو بعدها، تجسدت مظاهرها في أشعارهم وانعكست في قصائدهم.

النزعة القومية ونشأتها

إن النزعة القومية - على ما نسميها اليوم - بدأت من الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م وتكونت بعدها كتيار سياسي، اجتماعي أيديولوجي في الغرب. ثم ظهر في

القرن التاسع عشر كبار أصحاب الآراء القومية بحيث سُمي هذا القرن عصر القومية الذهبية^(١) إذ أن جفرسن وبائني أسسا هذه النزعة في أمريكا واستودعها جريمي بنتام في انكلترا ابعاداً جديدة إلى أن ارتفعت

البلاد العربية تختلف عما كان عليه في الغرب إذ أنها كانت في أوربا تياراً ايديولوجياً لكنها أصبحت في العالم العربي شعوراً وحاسة تمثلت في نضال العرب الذي خاضه الشعراء والادباء ضد الاستعمار والاستبداد والاحتلال في اشعارهم القومية بينما لم يكن الغرب ليعرف هذا اللون من الشعر لانه لم يبتل بالاستعمار^(٤١).

فللقومية في القرن العشرين وجهان مختلفان: الاول الوجه الامبريالي الذي دعت اليه اوربا وعلى طليعتها بريطانيا وفرنسا، والثاني الوجه النضالي ضد الامبريالية الذي ظهر وبرز في البلاد الآسيوية والافريقية التي تعاني الاحتلال والاستعمار^(٤٢).

كيف نشأت القومية عند العرب

كانت العرب تعرف - كما أشرنا - القومية منذ عهد قديم وبرزت مواقف شعرائها وادباؤها في الاطار القبلي الذي تحول فيما بعد الى الاطار القومي. فالقومية ظهرت وبرزت مظاهرها عند العرب بعد احتلال مصر بيد نابليون بونابرت سنة ١٧٨٩م بصورة غير صريحة وأخذت تميل الى الوضوح والصراحة في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع العشرين ولذلك الظهور عوامل متعددة ابرزها:

١ - ازدهار الفكر القومي في اوربا آنذاك واطلاع العرب على ذلك الفكر.

٢ - التدخل المباشر للسلطات الغربية بإنشاء المراكز العلمية وتأسيس المعاهد التعليمية ترغيباً للحركات القومية.

٣ - عجز الدولة العثمانية وضعفها ولجوءها الى الطغيان والتعسف بحق الشعب ورعاياها وممارستها لعمال قهرية ازاء كل حركة تحررية.

٤ - تنبيه المفكرين والاصلاحيين للشعب.

٥ - ثورة ١٩٠٨م والتي روجت جمعية (تركيا الفتاة)

على ضوء مبادئ قدمها ويليام گلدستون الذي اشار موجة من التجاوزات على البلدان النامية والسيطرة عليها.

إن الكاريبالدي في ايطاليا وفيكتور هوجو في فرنسا وبيسمارك في المانيا كانوا في طليعة اصحاب النزعة القومية في القرن التاسع عشر^(٤٣).

بُني مذهب هؤلاء القوميين على أنَّ الذين يملكون تاريخ مآثور وحضارة عالية وعنصر سام لهم الحق في توسيع نطاق حضارتهم الى البلدان الاخرى لتمدين شعوبها وردّها عن التخلف.

هذه الفكرة توسعت وتطورت وأدت الى ان وقعت بلدان العالم الثالث في مخالب الاستعمار واصبحت القومية تياراً ايديولوجياً تمسك به المستعمرون وبرزوا به غاراتهم الاستعمارية وفي الحقيقة أن القومية بدأت بنزعة انسانية لكنها انحرفت وأصبحت تؤيد العنصرية.

اما الامة العربية فكانت تتصل بواقعها السياسي وتحس بوجودها القومي منذ الجاهلية وتظهر مواقف ادبائها وشعرائها في الاطار القبلي، فهم يفخرون بانتمائهم القومي لقبائلهم.

هذا الحارث بن حلزة يشكري يقول ويفخر بمآثر قومه ومفاخرهم بين يدي عمرو بن هند راداً عمرو بن كلثوم التغلبي^(٤٤):

هَلْ عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يُنْتَهَبُ النَّاسُ غَوَاراً لِكُلِّ حَيٍّ عَوَاءُ

أَذْ رَفَعْنَا الْجَمَالَ مِنْ سَعَفِ الْبَحْرَيْنِ سِيرًا، حَتَّى نَهَاها الْحِجَاءُ
ثُمَّ مَلْنَا عَلَى تَمِيمٍ، فَأَحْرَمْنَا وَفِينَا بَنَاتُ قَوْمٍ إِمَاءُ

نجد الشعور القومي هذا لدى أكثر الشعراء الجاهليين لاسيما في معلقاتهم فكان الكيان القبلي يتجلى في المفاخر القبلية والاعتزاز بالنسب. ثم تحول على مَرَّ الزمن الى الكيان القومي حتى ظهرت في القرن الثامن عشر بوادره ونضجت بعد قرن او قرنين بفضل تفتح الوعي السياسي للعرب. فقضية القومية في

مضادة للاحتلال بينما كان الشعور هذا في بلاد الشام يصطبغ بصبغة مضادة للحكم العثماني الفاسد.

الدكتور عمر الدقاق يعبر عن هذه الصبغة بالنزعة الوطنية في مصر والنزعة العربية في بلاد الشام والعراق إذ يقول: «هذا الشعور القومي المبكر الذي ظهرت بوادره في مصر قبل أن تظهر في سائر الشرق العربي أخذ يجد صدها في الأدب ويثير النزعة الوطنية في نفوس الشعراء والخطباء والكتاب»^(١٩).

وهو نفسه يقول: «على هذا فإن بواكير الشعر القومي بنزعة العربية الصافية لا نجدها إلا في الشام والعراق والمهجر...»^(٢٠).

وبما أن النزعة القومية في بلاد الشام والعراق كانت مغشية بالنزعة العربية فابتدأت هذه الحركة بمن يدعو إلى البعث العربي من النصارى الذين لم يستشعروا أية صلة دينية أو قومية تربطهم بالترك فبعثوا حركة تستهدف قيماً قومية بدلاً من القيم الدينية. من هؤلاء النصارى بطرس البستاني، ناصيف اليازجي، إبراهيم اليازجي وسليم نوفل وميخائيل شحادة و...^(٢١).

ولهذا يرى البعض أن القومية في العرب والدعوة إليها، بدأت على ضوء مساعي أشهر الصحفيين اللبنانيين الذين تدربوا بيد المفوض الأمريكي المعروف (الدكتور كونيلوس فاندريك)^(٢٢) ومن أشهر رؤساء التحرير والصحفيين يعقوب صروف، فارس نمر، شبلي شميل، بشارة زلزل، اسكندر بارودي، نقولا نمر، خليل سعادة وجرجي زيدان وعلى الرغم من محاولات الغرب التي جرت لايقاد لهيب القومية عن طريق بعث الوفود التبشيرية إلى البلاد العربية نجد النزعة القومية العربية تبرز ويتسع نطاقها بين الجمهور كرد فعل على احتلال الاستعمار الفرنسي والبريطاني أو على اضطهاد وظلم اجتماعي تمارسه الحكومات الجائرة المتظاهرة بالاسلام في حق شعوبها.

فالقومية - كما اشرنا - كانت قبل الحرب الاولى

على اثرها النزعة الطورانية وتعمدت تتريك العرب.

٦ - احتلال السلطات الاستعمارية للبلاد العربية وتطبيق سياستها التوسعية في هذه المناطق.

٧ - المجزرة التي شنها جمال باشا السفاك في بقاء سوريا ولبنان.

هذه العوامل وعدة عوامل أخرى أدت إلى نشوج الحركة القومية التي بدأت قصتها عند العرب في بلاد الشام سنة ١٨٤٧م بانشاء جمعية ادبية قليلة الاعضاء في بيروت في ظل رعاية امريكية^(٢٦).

يرى جورج انطونيوس أن أول صوت سُمع لحركة العرب القومية كان في اجتماعات هذه الجمعية التي انعقدت سرّاً وكان احد اعضاءها ابراهيم اليازجي الذي غدّى بقصيدته المشهورة هذه الحركة واوقف العاطفة العميقة في الشعب^(٢٧). فهو يخاطبه ويدعوه إلى التنبه والاستفاقة^(٢٨):

تَنَبَّهُوا واستفيقُوا ايها العربُ

فقد طمى السَّيْلُ حتى غاصتِ الرُّكْبُ
فيم التعلُّلُ بالآمالِ تخدعُكم

وأنتم بين راحاتِ القنا سلب
كم تُظلمون ولستم تشكّون وكم

تُسْتَغْضَبون فلا يبدو لكم غَضَبُ؟
فشمِّروا وانهضوا للأمرِ وابتدروا

من دهركم فرصة ضنّت بها الحُجُبُ
في عهد عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ - ١٩٠٨م امتدت
الحركة القومية من بلاد الشام إلى البلاد المجاورة
واصبحت حركة واسعة النطاق.

أما في مصر التي احتلت سنة ١٨٨٢م وأُصيب
باحتيال مبكر من جانب الانجليز فبدأت الحركة القومية
ترمي إلى هدف يختلف عما كان في بلاد الشام وهو
السعي لارغام الجيش البريطاني على الانسحاب وهذا
الاتجاه الفكري الجديد ظهر في مصر قبل البلاد العربية
الآخرى. فالشعور القومي في مصر اصطبغ بصبغة

النزعة القومية وموقف الشعراء العرب منها قبل الحرب العالمية الأولى وفترة ما بين الحربين

وفترة ما بين الحربين شعوراً وحاسة لا ايدولوجية وفكرة وخير دليل على ذلك ما نجده في اشعار بعض الشعراء من الدعوة الى الامة الاسلامية والخلافة العثمانية من جانب والاعتزاز بقوميتهم من جانب آخر كما جاء في شعر احمد محرم إذ يقول^(١٣):
ليس التعصب للرجال معرة إن الكريم بقومه يتعصب

الميزات الخاصة للقومية العربية

لما أن الحكم العثماني كان يقترب بالاسلام ويدعي سلاطين الترك انهم ورثة الخلافة العباسية والاسلام الموروث كان مقترناً مع كيان الدولة العثمانية والعروبة تسمى آنذاك الاسلام والاعتناق به، فامتزجت النزعة القومية بفكرة الوحدة الاسلامية، والجماهير ومنهم الشعراء يطالبون بحفظ حقوق العرب في ظل الامبراطورية العثمانية وبعبارة اخرى تلازمت العروبة والاسلام واقتربت السياسة بالدين وبعض المفكرين يدعون الى هذا التلازم والاقترب، منهم جمال الدين الافغاني، محمد عبده، مصطفى كامل وعبد الله نديم الذين ينظرون الى القومية بالمنظار الديني ويعتقدون بالوحدة الاسلامية تحت راية العثماني^(١٤) ورأى الدكتور عمر الدقاق «أنهم كانوا من ذوي الاتجاه العثماني ويرون العثمانية والمصرية من معدن واحد هو الاسلام»^(١٥).

ينبغي هنا ان نشير الى ان التلازم بين الدين والسياسة الذي قال به امثال سيد جمال الدين لا يعني ان الاستبداد السياسي اصبح يصطبغ بقداسة دينية وانما يعني ان جماهير المسلمين ليلتزموا المسؤولية نحو مصيرهم السياسي كواجب ديني.

فهكذا كانت النزعة القومية العربية قبل الحرب العالمية الاولى او قل قبل العام الدستوري ١٩٠٨م تجسدت في الوحدة الاسلامية تحت الامبراطورية العثمانية بغية التصدي للاستعمار واطماعه وسياسته

التوسعية. فامتزج الشعور القومي والشعور الديني تحقيقاً لهذه البغية وشاعت النزعة العثمانية في الادب العربي وخاصة في الشعر ونرى هذه النزعة بين الشعراء الذين كانوا صادقي العقيدة العثمانية اما لتأثيرها الديني في نفوسهم او الرهبة من استبدالها او الرغبة في جَر المنافع.

اصحاب هذا النوع من الشعور القومي كانوا في مصر التي تخلصت من الحكم العثماني قبل غيرها من البلاد. منهم احمد محرم الذي كان كشعراء الامة الاسلامية الآخرين حريصاً على دوام الصلة الدينية والسياسية مع العثمانيين، نسمعه يقول^(١٦):

يا آل عثمان من ترك ومن عرب

وأى شعب يساوي الترك والعربا

صونوا الهلال وزيدوا مجده علماً

لا مجد من بعده ان ضاع أو ذهباً

ومنهم ولى الدين يكن الذي كان يكره الاستبداد، لكنه يحب الوطن وعلى قول انيس المقدسي: «هو يجمع في نفسه شدة النقمة على السلطان عبد الحميد وشدة العصبية للوطن التركي»^(١٧) وهو يعبر عن وطنيته هكذا: لوطني مني حياتي وكل ما كان دونها على أن اعيش عثمانياً واموت عثمانياً»^(١٨).

ومنهم محمد عبد المطلب الذي كان من الدعاة الى الامة الاسلامية يمدح عبد الحميد ويهنئه بالدستور في سنة ١٩٠٨م بقصيدة يقول في اولها^(١٩):

ياعيدُ حيَّ وانت خيرُ نهار

عبد الحميد بدولة الاحرار

ملك اقام على الخلافة منهم

حرماً وقاها صولة الاشرار

فمشاعر العرب باستثناء المتطرفين منهم، بقيت على ولائها للدولة العثمانية بدافع العاطفة الدينية المشتركة وابتعدوا عن القيام بأية ثورة ضدها يؤكد ذلك ما قاله فؤاد الخطيب الذي اصبح بعد ذلك شاعر الثورة العربية

الكبرى التي قامت ضد حكم الآستانة هو نفسه الذي كان يخاطب الترك بقوله: (٢٠)

أخواننا الاتراك مُدُّوا لنا يداً

من الودِّ إنا قد مددنا لكم يدا

وما نتقاضى ثورةً دموية

فلسنا عطاشا نطلبُ الدمَ موردا

ولكننا نرجو إخاءً موطداً

يعزُّ علينا ان يكونَ مهديا

فتجلي هذه النزعة العثمانية ايضاً بين الشعراء

المسيحيين في مصر كخليل مطران - الذي عدّه عمر

الدقاق من فئة كانت معتدلة في شعورها القومي وتتخذ

موقفاً وسطاً^(٢١) واعتبره المقدسي من تابعي النزعة

العثمانية^(٢٢) - الذي يعدّ الترك فحول الحروب التي اذا

خاضوها لا تنتج الا الفخر والسيادة^(٢٣):

وما التركُ الا فحول الحروب

رضيعو لظاها من المولد

اذا لقسحوها الدماء فلا

نتاج سوى الفخر والسُّود

سواء على المجد أياً تكن

عواقبُ مسعاهم تُحمد

ففي هذه الفترة من الزمن كانت جمهرة الساسة

المصريين ومنهم عبد الله نديم، مصطفى كامل، جمال

الدين الافغاني ومحمد عبده والشعراء المصريون

ومنهم محمد عبد المطلب، حافظ ابراهيم، احمد شوقي،

احمد محرم وشكيب ارسلان لا يرون تنافياً بين

العاطفة الدينية والعاطفة الوطنية بل كانوا يجدون في

ارتباطهم الاسلامي بتركيا سلاحاً يفلون به عضد

الاستعمار الاوربي^(٢٤).

كان مصطفى كامل يرى «ان مظاهرة الامة المصرية

نحو الدولة العلية هي مظاهرة ضد الاحتلال الانجليزي

واشتراك افراد الامة على اختلافهم في الاكتتاب للجيش

العشائي هو اقتراع عام ضد الانجليز في مصر^(٢٥)

فلم يكن هؤلاء الساسة يريدون ان تنقيد مصر في تركيا وانما يريدون استقلالاً تاماً لها مرتبطة بتركيا بعلاقة الاسلام لان العاطفة الاسلامية كانت متمثلة في الخلافة العثمانية.

النزعة الشرقية هي نزعة اخرى ظهرت بجانب

النزعة الدينية وبرز من خلالها شعور العرب القومي

والضاربون على هذا الوتر الشرقي كانوا من القائلين

بوجوب الانقلاب مع المحافظة على الامة العثمانية

ويعتقدون بانه لا ينجي الشرق من براثن الاستعمار الا

العرش العثماني اذا قام على أسس الحضارة

الجديدة^(٢٦).

ولا نجد هذه النزعة في مصر فحسب بل تجلت

مظاهرها في سائر الاقطار العربية ولا سيما سوريا

ولبنان والعراق.

وفي الحروب التي خاضتها تركيا قبل الدستور

يعطف المسلمون عموماً على الدولة العثمانية كحرب

روسيا سنة ١٨٧٨م والحرب اليونانية ١٨٩٧م وحرب

طرابلس ١٩١١م وحتى في الحروب التي نشبت بين

دولة شرعية ودولة اخرى ولم تكن فيها لتركيا مصلحة

مباشرة، كان العالم الاسلامي بجانب الدولة الشرقية

وأثيرت العواطف الشعرية على نحو ما نرى في الحرب

بين روسيا واليابان (١٩٠٤ - ١٩٠٥م) من قصيدة

مشهورة لحافظ ابراهيم يمدح فيها امبراطور اليابان

(الميكادو) ووطنية شعبه^(٢٧):

هكذا الميكادو قد علّمنا

ان نرى الاوطان اماً وأباً

والجدير بالذكر انه كان من الشعراء المفكرين الذين

نادوا بالاتجاه الاسلامي ممن يعارض سياسة الدولة

العثمانية علناً ويقف من العثمانيين موقف المندد - فلا

يصح - كما رأى الدكتور ابو حاقه - «أن نعدّهم عملاء

للدولة العثمانية او ميوقين لسياستها لانهم كانوا

يؤمنون بان مصلحة المسلمين تقتضي اتحادهم تحت

ظل الخلافة العثمانية شرط أن تقوم هذه الخلافة بالاصلاحيات اللازمة»^(٢٨).

فكان المفهوم القومي حتى مطلع القرن العشرين مغشياً بالنزعة الدينية حيناً أو بالعروبة حيناً أو بالنزعة الشرقية حيناً آخر.

وبعد العام الدستوري ١٩٠٨م وبعد أن تبين أن الدستور لم يكن إلا سراباً دخلت النزعة القومية في مرحلة جديدة وهي نضال العرب ضد التبعية التركية واخذت العاطفة الدينية تتضاءل شيئاً فشيئاً. إذ أن الاتحاديين (جمعية الاتحاد والترقي) سعوا إلى تترك الدولة العثمانية وجمع الشعوب في ظل البوتقة الطورانية^(٢٩).

و«ارادوا من وراء خطة احكموا تدبيرها الفتك برجال العرب ومفكرهم وهي خطة اختيار جمال باشا القائد العام في بلاد العرب - وهو المعروف بشدة الشكيمة والميل إلى سفك الدماء - تنفيذاً لسياسة التتريك وانشاء امبراطورية تحيي مجد جنكيزخان وتيمورلنك»^(٣٠).

فأخذ العرب و - منهم الشعراء - يقابلون سياسة العثمانيين وينددون باستبدادهم ويقطعون ذلك الخيط المشترك الذي كان يشدهم إلى الترك و«أخذ التفكير القومي عند العرب يتجه نحو التبلور في مواقف سياسية بارزة كالمؤتمر العربي في باريس ١٩١٣م واتصالات شريف حسين بالدولة البريطانية وترشيحه لخلافة المسلمين في دولة عربية موحدة مستقلة والنضال ضد السلطنة العثمانية ومظالمها وطغيانها مما نشأ عنه اعدام جماعة من الشهداء اللبنانيين والسوريين على يدي جمال باشا والي العثماني الذي تولى الاحكام العرفية في اثناء الحرب العالمية الاولى^(٣١)».

ان فضائع جمال باشا اثارت مشاعر الشعراء لا في سوريا ولبنان فحسب بل في سائر البلاد العربية، فنرى جميل صدقي الزهاوي الشاعر العراقي يصور في

قصيدته (النائحة) بطولة هؤلاء الشهداء ويشبه ببسالته^(٣٢):

دَنُوا فَرَقَوْهَا واحداً بعد واحد
وقالوا وجيزاً ليس فيه فضول
فَمِنْ سابق كيلاً يقال محاذر

ومستعجل كيلاً يقال كسول
وهل (للعرسي) الجريء (وعارف)

إذا عُد اقطاب اليراع عدل^(٣٣)
ومن مناوئي السياسة العثمانية وعلى الاخضر عبد الحميد ومن أبرز حاملي هذه المناوأة سليم سركيس صاحب جريدة «المشير» الذي يقول في احدي قصائده^(٣٤):

نرجو صلاح الترك قد
خابت أمانينا الكواذب
هي دولة ظلمت وليد
س العدل عن ظلم بذاهب
فانشدُ معي قولاً تُردّ
ده المشارق والمغارب

ليس العجيبة فقدها
بل عيشها احدي العجائب

ومثل سركيس كثيرون ممن كرهوا الادارة التركية وعدّهم المقدسي والبقاعي من المناوئين للعثمانيين^(٣٥). أما الرصافي والزهاوي وولي الدين يكن ومطران وعبد الحميد الرافعي فكانوا من حملة لواء الاعتدال إلى جانب النقمة على عبد الحميد بظلاماته واستبداده وقد عبّر عن ذلك ولي الدين يكن الذي كان في طليعة الثائرين على الاستبداد مصوراً حالة العرب آنذاك بقوله^(٣٦):

صحا كلّ شعب استردّ حقوقه
فيا ليت يصحو شعبك المتناوم
هو الشعب أفنى دهره وهو خادم
وليس له فسيمن تولود خادم

يقلب من عهد لعهد على الازى

إذا زال عنه غاشم جدّ غاشم
والشاعر نفسه هو الذي يخاطب عبد الحميد
ساخرًا^(٣٧):

تجود بالعفو لكن لست تضمّره

كما يجود مريض الموت بالمال
ماذا يؤمل من آتيك ذو أمل

وأنت ماضيك لا يلتام بالحال

لما خلّع عبد الحميد سنة ١٩٠٩م هلال الرصافي كما
هال سواه من الشعراء ومن تهليله في شعره قصيدة
(تموز الحرية) و(وقفة على يلدز). ففي الأولى يلتفت نحو
شهر تموز ويمدحه ويعتبره شهراً أصبح الناس فيه
محررين وكانوا يعيشون في ظل خلافة السلطان عميّاناً
دون عكاز يعمهم الجور والظلم^(٣٨):

أكرم بتموز شهراً إنّ عاشره

قد كان للشرق تكريماً وتعزيزاً

شهراً به الناس قد اضحت محررة

من رقّ من كان يقفو اثر جنكيزا

كُنّا من الجور عميّاناً وليس لنا

من قائدين ولم نملك عكاكيزا

حتى نهضنا الى العلياء تُقدّمنا

عصابةً برزت في المجد تبريزا

وفي هذه الاخيرة التي قالها عقب خلّع عبد الحميد
وارساله الى سلاطيك سجيناً، يذكر فيها فساد الحكومة
ومنكراتها وما كان يجري في عهد السلطان من المظالم
الرهيبية مخاطباً قصره^(٣٩):

قد تخوّنتنا ثلاثين عاماً

جئت فيها لنا بكل محال^(٤٠)

اسمع الآن فيك ما كان يعلو

من أنين لها ومن إغوال^(٤١)

كيف ننسى تلك الخطوب اللواتي

لَقَحْتُ منك حربها عن حيال^(٤٢)

يوم كُنّا وكان للجهل حكمٌ

خاذلٌ كل عالم مفضل

أفأصبحت نادماً ايها القصد

رُ تبالي بالقوم أم لا تبالي؟

ثم يدعو الملوك من أمثال عبد الحميد الى الاعتبار

من سقوطه:

ليس عبد الحميد فرداً ولكن

كم لعبد الحميد من أمثال

فاتركوا الناس مطلّقين والآ

عِشتم موثّقين بالاوّجال

هل جنيتهم من التجبر الآ

كلّ إثم عليكم ووبال

فعلى اثر اعلان الدستور العثماني وبعد ان هبت على

العرب نسمات الحرية، عادت الثقة الى نفوسهم فأخذوا

يصيحون ويعلنون سخطهم وتذمرهم ويدعون الى

النهوض في سبيل انتزاع حقوقهم وحفظ وطنهم

ووضعوا فاصلاً بين الدين والسياسة وفصلوا حساب

الامة الاسلامية عن حساب السياسة وبقيام الحرب

العالمية الاولى وما يتبعها من الاحداث واعلان الحماية

الانكليزية يدخل نضال العرب مرحلة جديدة حاسمة

تقتضي طرح العامل الديني جانباً والاعتماد على

العنصر القومي وحده في حين استدعى الامر في مصر

الاعتماد على العامل الديني باعتباره عنصراً فعالاً في

مقاومة الاحتلال الانكليزي^(٤٣) «وبعد فترة اعقبت

الحرب العالمية الاولى - بخاصة في مصر ولبنان -

تجلت في الشعر القومي نزعات وطنية محلية اتسمت

بالحرص على ابراز كيان خاص بها فاصبحت الامة

الاسلامية والرابطة الشرقية والنزعات الوطنية والعاطفة

الانسانية تخدم التيار القومي واكسبته قوة وتدفعاً

ومضاء»^(٤٤).

والبريطانية في البلاد العربية لما فيهما من خلاف الوعود أثناء الحرب الأولى خاصة من قبل بريطانيا ولذلك - كما سبق ذكره - لم تكون أيديولوجيا بل - كما قال أبو حاقه - «نهضت على أسس ثقافية ولم تنهض على أسس عرقية كما حدث في أوروبا ولم تكن معادية لاحد ولم تكن كالنازية أو كالفاشية تهدف الى الاستيلاء على سواها وانما كانت تقاوم الاستعمار وتسعى الى الاستقلال والى الاسهام في الحضارة الانسانية»^(٥٠).

موضوعات القومية في الشعر الحديث

قد تبين لنا من خلال دراسة الاشعار القومية في الفترة التي يدور البحث حولها أنها كانت تنطوي على موضوعات ترتبط بواقع العرب وحياتهم السياسية من مثل ما نادى به الشعراء من التمسك بالعربية والاعتزاز بالاصل، الاعتزاز باللغة العربية والفخر بالوطن وتكريم الشهداء والوطنيين وتخليد ذكراهم ومناضلة الاستعمار والتبديد بالمحتلين والدعوة الى الوحدة. نقوم هنا ببسط بعض هذه الموضوعات:

أ- التمسك بالعربية والاعتزاز بالاصل:

ان العرب اشد الامم تمسكاً بالنسب واعتزازاً بالاصل وكانت هذ الظاهرة قد اتصلت بحياة العرب منذ عصور ماضية وظهرت في الادب العربي وانبثقت بانبثاق النهضة الادبية بشكل جديد فحاول الشعراء ان يعبروا عن عواطفهم نحو انسابهم ويفخروا بعروبيتهم. حيث نجد بعض الشعراء المعاصرين يحذون حذو القدماء في الفخر بواسطة النسب الحقيقي منهم محمد عبد المطلب الشاعر المصري الذي يعتز بنسبه الذي يرجعه الى «جهينة»^(٥١) قائلاً^(٥٢):

أنا ابنُ الصَّيْدِ مَنْ انكَرَنِي

ينكر الليث إذا ما انتسباً^(٥٣)

مِنْ أَسْيَيْنِ كَرَامٍ ضَرَبُوا

فوق هامات المعالي قُبباً^(٥٤)

كان شبلي شميل (١٩١٧ - ١٨٥٠م) من الدعاة الى الاصلاح ويرى انفصال الدين عن السياسة من الطرق المؤدية اليه. ان علماء الدين أو القساوسة في التاريخ كانوا يستغلون قدرتهم ولهذا يختلف رأيه عن رأي بعض القوميين المصريين الذين يرون الدعم للسلطان العثماني وتعزيز اركان سلطته ضرورياً لمكافحة الانجليز والمقاومة امام سيطرته^(٥٥).

وكان علي عبد الرزاق من أبرز مؤيدي انفصال الدين عن السياسة ويعتقد بأن المسلمين ليحذروا ارباب الدين عن التدخل في السياسة^(٥٦).

وكان الكواكبي يؤكد على اتحاد العرب على الجنس لا على الدين وهذا رأي ينادي لفصل الدين عن السياسة وهو يعتقد كعبد الرزاق بعدم تدخل اصحاب الخلافة في الامور السياسية^(٥٧) والجدير بالذكر أن الاعتقاد بانفصال الدين عن السياسة كان قد يؤدي الى العلمانية (Secularism) وهذه ميزة تمتاز بها القومية العربية في فترة ما بين الحربين والظروف كانت تقتضي طرح العامل الديني جانباً والاعتماد على العنصر القومي وحده لانه:

اولاً: كانت الصهيونية تريد التفرقة بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين وتحاول بث الخلاف بين الفريقين.

ثانياً: كانت فرنسا تثير دائماً فكرة الاقليات المسيحية لعرقلة الوحدة العربية وثالثاً: اشمئز المسلمون من استغلال العثمانيين الذين كانوا يرتكبون كل جريمة في ظل راية الاسلام ويبررونه باسم الاسلام^(٥٨).

«فاذا قلنا ان القومية العربية كانت علمانية فليس معنى ذلك أنها تنكرت للديانات وبخاصة للمسيحية والاسلام وانما معناه أنها لم تكن منتمية الى دين»^(٥٩).

ومن ميزات الخاصة الاخرى بعد الحرب العالمية الاولى، أنها كانت تناوئ السياستين الفرنسية

وكفاني من فخاري نسبة

جمعت في طرفيها العربا
والشاعر العراقي الشيخ بهجة الاثري اشار الى
انتساب العرب الى قحطان انتساب الترك الى
جنكيزخان^(٥٥).

ومن كان قحطان أباه فانه

«له الصدر دون العالمين او القبر»
سلام على تلك الشماثل! انّها
عبير... نمت في الخافقين له نشر^(٥٦)
ومن مبلغ صُهب العثانين أنهم
على سفر، لا يستتب لهم أمر^(٥٧)
وأن (بني قحطان) سادات أنفسهم

وموطنهم حرّ وملكهم حرّ
ومن هذا القبيل ما نجده في شعر احمد الصافي
النجفي الذي يفخر بعروبته ونسبه ووحدة الاصل^(٥٨):
أنا عربي وحسبي بذا
جواباً يعظمه سائلي
فآبائي الصّيد من هاشم

وأخوالي الغرّ من (عامل)^(٥٩)
وبما أنّ الاستعمار كان يريد غرس بذور الخلاف
بين المسلمين والمسيحيين ويحاول ايهاً المسيحيين
في لبنان بانهم ليسوا من العرب فنجد الشعراء
المسيحيين في طليعة المعتزين بالعروبة منهم رشيد
سليم الخوري (الملقب بالشاعر القروي) الذي على
مسيحيته يرى خير ذخر العرب عند اعلام الاسلام
والانتساب اليهم اشرف انتساب^(٦٠):

أزريد اعظم من أبي بكر ومن

عمر اذا انتسب الكرام ومن علي
أتجف أوراق العروبة في ربي

لبنان وهي نضيرة في «يدبل»
مثل هذه المفاهيم القومية ايضاً في قصيدة للشاعر
اليمني محمد محمود الزبييري قالها بمناسبة اجتماع

ممثلي الدول العربية في لبنان ويؤكد فيها ان العروبة
كالجسد الواحد^(٦١):

انّ العروبة جسم ان يثنّ به
عضو تداعت له الاعضاء تنتقم
ان يضطهد بعضه فالكل مضطهد

او يهتضم جزؤه فالكل مهتضم
ان حافظ ابراهيم يشير في قصيدة له الى عروبته
ويفخر بها ويرى كالزبييري أنّ كل اقطار العالم العربي
يساوي في المجد والنسب كالجسم الواحد^(٦٢):
لمصر أم لربوع الشام تنتسب
هنا العلا وهناك المجد والحسب^(٦٣)

ركنان للشرق لازالت ربوعهما
قلب الهلال عليها خافق يجب^(٦٤)
أم اللغات غداة الفجر أمهما
وان سألت عن الآباء فالعرب^(٦٥)
ابراهيم اليازجي ايضاً يذكر بعز العرب ومجدهم
قائلاً^(٦٦):

وما العرب الكرام سوى نصال
لها في أجفن العليا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل
وعن آثارنا أخذ الانام
ونحن أولو المآثر من قديم
وان جحدت مآثرنا اللئام
ولسنا القانعين بكل هذا
وليس لنا بعروته اعتصام
ولكننا سنجهد للمعالي
الى أن يستقيم لنا قوام
سلام ايها العرب الكرام

وجاد ربوع قطركم الغمام
كان بعض الشعراء يجدون في مراثيهم للزعماء
العرب مجالاً فسيحاً للتعبير عن حبهم لوطنهم منهم

بشارة الخوري (الملقب بالاخلط الصغير) الذي تلمس
الروحية العربية فيه خلال مرثاته للملك فيصل الاول
وفيها يصف صدق عروبة لبنان قائلاً: (٦٧)
وسفحنا في دجلة قلب لبنان

واجسفانه الهوامي الهوائيم
عربي النجار شدّ عراه
باللوائين عبد شمسٍ وهاشم
خذ بهمس القلوب في أذن الحبّ

ودع عنك كاذبات المزاعم
وكان الشعراء المهجريون الذين يحنون الى اوطانهم
قد يبينون شغفهم ببلادهم من خلال حنينهم، فهذا ايليا
ابو ماضي الشاعر المهجري يعبر عن وطنيته في
قصيدة (وطن النجوم) هكذا: (٦٨)

وطن النجوم أنا هنا
حدّق أتذكر مَنْ أنا

انا ذلك الولد الذي

دنياه كانت هيهنا

أنا من مياهك قطرة

فاضت جداول من سنا

لكنه مهما سلا

هيهات يسلا الوطننا

وكان بعض الشعراء ينظرون الى القومية بالمنظار
الوطني وحبّ الوطن. منهم الشاعر السوداني محمد
سعيد العباسي وهو يرفض دعوة القومية اصلاً
باعتبارها دعوة استعمارية وينظر الى هذه الدعوة في
شيء كثير من الشك والارتياب. يخاطب اصحاب هذه
الدعوة ويقول: (٦٩)

وماتريدون من قومية هي في
رأبي السراب على القيعان رقرقا

طلبتم الغرض الاسمي بتسمية
كأن بالاسم تحريراً واعتاقاً
لقب أو اسم أقام الغافلون له

سوقاً فأنشأت الاغرض أسواقا
وما ارادوا يمين الله إذ وضعوا

جمع الشتات ولا للحق احقاقا
لاتخذعوا إنّ في طيات ما ابتكروا

معنى بغيضاً وتشيتاً وارهاقا
ليصبح النيل افكاراً موزعة

وساكنو النيل اشياً واذواقا
فالسودان في شعر العباسي يكون مرادفاً للوطنية

فلا ينبغي - في رأيه - الحديث عن السودان الا في اطار
وحدة وادي النيل، حتى يكون للوطنية معنى وسبيل
وتكون الوطنية والقومية والسودان ومصر في شعر
العباسي مترادفات لمعنى واحد (٧٠).

وهكذا اصبح الاعتزاز بالوطن والعروبة احدي
مقومات القومية التي كان الشعراء يتمسكون بها
ويلحون عليها لابرار كيانهم العربي امام ما يحاول
الاستعمار من تضييف العرب.

ب - الاعتزاز بلغة الضاد

إنّ القاسم المشترك بين الامة العربية لغتها قبل أن
يكون عقيدتها الدينية فإنّ أمماً عديدة - من الترك
والفرس والهنود و... - اعتنقت الاسلام. فالبلاد التي
تتكلم اللغة العربية عندها عنصران لتعزيز قوميتها:
عنصر اللغة وعنصر الدين. وبما ان بعض العرب
معتنقون المسيحية فاللغة اقوى عنصر يربط بعضها
ببعض وهذا امر جعل بعض اصحاب الآراء - كعبد الله
نديم - يعتبر اللغة رأس مقومات الامة واكبر أركان
الشعور الوطني ويعتقد ان اكثر منهج تأثيراً في تصعيد
الحاسة القومية هو تأسيس المدارس لتعليم اللغة
العربية على منهج صحيح (٧١) ومن هنا كانت هي السمة
الاولى التي تميز بها جميع العرب مسلمين ومسيحيين

في تحقير اللغة العربية، مبيناً فضلها ورفع شأنها، يقول^(٧٦):

لغة بفضل جمالها وجلالها

شهدت شواهد محكم القرآن

لغة اذا ادركت سحر بيانها

ادركت معنى السحر في الأجفان

ثم يعاتب المنصرفين الى اللغات الاجنبية قائلاً:

كل اللغات لديك يا لغة الهدى

خدم وأنت مسليكة الايوان

ظلموك اهلك بالجفاء فاصبحوا

والكل يمشي مشية السرطان

لم يحفظوا لك ذمة وتعلقوا

بهوى السوى ورموك بالهجران

لكنهم غرّوا بغيرك حقة

من دهرهم والدهر ذو ألوان

والجدير بالذكر أن رجال الوطنية ومنهم الادباء

والشعراء كانوا متحمسين للغة الفصحى ويذودون عنها

وكل شيء يدعو الى الحملة ضدها يثير سخطهم. على

سبيل المثال نشر عيسى اسكندر المعلوف عام ١٩٠٢م

مقالاً في الهلال عدد مارس أبان فيه جهوده في ضبط

اللهجات العامية وتعقيدها كما دعا الصحف الى

استخدامها^(٧٧). قوبلت هذه الحملة بحملة أشد منها وقد

اسهم الشعراء فيها، منهم حافظ ابراهيم الذي نظم

قصيدته المشهورة «اللغة العربية» سنة ١٩٠٣م يدافع

بها عن انصار الفصحى قائلاً على لسان اللغة^(٧٨):

رجعتُ لنفسي فاتهمتُ حصاتي

وناديت قومي فاحتسبتُ حياتي^(٧٩)

رموني بعقم في الشباب وليتني

عُقمْتُ فلم أجزعُ لقول عداتي^(٨٠)

ولدتُ ولما لم أجِد لعرائسي

رجالاً واكفاءً وأدْتُ بناتي^(٨١)

وسعتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً

وما ضيقتُ عن أي به وعظمت

من سائر الامم^(٧٢). اما العنصران اللغوي والديني عند

العرب فلا ينفصل احدهما عن الآخر لأن الرسول (ص)

كان عربياً وظهر الاسلام بين العرب وانتشر الى العالم

بلسانهم. فاللغة العربية كانت لاتزال موضع تقديس

المسلمين على اختلاف قومياتهم. لكن العرب تمسكت

واحتفظت بها مقاومةً امام حرب شنها الاستعمار

لمحاربة اللغة القومية وفرض لغته على الامم

المستعمرة. فالتفاخر باللغة العربية وعظمتها والتغني

ببلاغتها وفصاحتها اصبح سمة بارزة للشعراء التي

نظمت حول هذه اللغة. منها ما نظمه حافظ ابراهيم من

قصيدة «اللغة العربية» ويتحدث بلسانها^(٧٣):

أنا البحر في احشائه الدرّ كامن

فهل سألوا الغواص عن صدقاتي

ومنها ما قاله امير الشعراء معبراً فيه عن جمال

خصّ الله به لغة الضاد^(٧٤):

ان الذي ملأ اللغات محاسناً

جعل الجمال وسرّه في الضاد

فظاهرة الاعتزاز بلغة العرب كانت مظهراً بارزاً

للاعتزاز بالعروبة باعتبار هذه اللغة اساساً

لمقوماتها.

فاذا ألمت بها ازمة - كالدعوة الى استبدال اللاتينية

بها - قام الشعراء للدفاع عنها كمصطفى صادق الرافعي

الذي نظم قصيدة وعد فيها اللغة العربية أمّا تركت

للاجيال الناشئة مآثر ومفاخر، لكنهم يكيدون لها^(٧٥):

أمّ يكيد لها من نسلها العقبُ

ولانقيصة الا ما جنى النسب

كانت لهم نسباً في كل مكرمةٍ

وهم لنكتبها من دهرها سبب

ومن سوء الحظ هوجمت اللغة العربية من جانبين:

جانب الاستعمار وجانب الاترك، فالعرب تحاول

للاحتفاظ بلغتها رداً على تنديد الاتحاديين (جمعية

الاتحاد والترقي) من جهة والمحتلين من جهة أخرى.

فهذا عبد الحميد الرافعي يرد على سياسة الاتحاديين

فكيف أضيّق اليوم عن وصف آلة

وتنسيق أسسها لمخترعات

ثم يعرب كالرافعي عن أسفه وقلقه لانصراف

البعض عن الفصحى الى لغة لا اصل لها ولم يأخذها

الخلف عن السلف بطريق الرواية التي تحفظها من

التغيير كما هو الشأن في العربية مشيراً الى تلك اللغة

المرقعة التي كانت مستعملة آنذاك:

أيهجرني قومي - عفاك الله عنهم -

الى لغة لم تتصل برواة

سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى

لعاب الافاعي في مسيل فرات^(٨٢)

عبد الله البنا أيضاً في قصيدته (ذكرى اللغة العربية)

يصور آثار صراع دار بين حماة الفصحى القوميين

والداعين الى اللغة العامية قائلاً^(٨٣):

أم اللغات عويلي غير منقطع

حتى أرى الدهر عبداً من رعاياك

حتى أرى لك داراً لا تضام ولا

تطلّ الا على مجد ثراياك^(٨٤)

حتى أرى لك حظاً في الحياة وان

طال الرقاد على انقاض موتاك

حتى أرى لك ابواباً مفتحة

لطالبي العلم تشفي داء مرضاك

عبد الله عبد الرحمن الشاعر السوداني يشير أيضاً

الى التآمر على الفصحى مبيناً دورها الخطير في حياة

الامة العربية يقول^(٨٥):

بني وطني ان قمّت للضاد داعياً

فاني أدعو للتي هي أقوم

لقد وثّق الله الروابط بيننا

فلا تنتقضوا بالله ما الله مبرم

ارى الضاد في السودان أمست غريبة

وابنأؤها أمست لي تتجهّم^(٨٦)

ونبئت في السودان قوماً تأمروا

على اللغة الفصحى أساءوا وأجرموا

وبالادب القومي قالوا سفاهة

وما لمحوا حقاً ولكن توهموا

ابيات هذا الشاعر السوداني وابيات اخرى تدلنا على

انّ الشعراء لم يدافعوا عن اللغة العربية لكونها لغة

القرآن فحسب بل يتجاوز ذلك الى كونها اقوى رابطة

تشد العرب بعضهم الى بعض. فاذا تحولت الفصحى

الى لغة اخرى او استبدلت العامية بها فهذا يعني انهيار

المجتمع العربي وفقد الاواصر المتينة بين افراده. لهذا

نرى خليل مردم بك ندب في قصيدة (واعربيتاه) هذه

اللغة بلوعة واسى قائلاً^(٨٧):

هجروا من الكلم الصحاح سخافة

واستبدلوا بعربها أعلاجها^(٨٨)

لم يتركوها بعد ذاك وشأنها

بل أجهزوا كي يطفئوا وهاجها

واهاً لأساد فمنذ ثكلتهم

قصرت يدي عن أن تذود نعاجها

ولهذا أيضاً نجد الشاعر المهجري رشيد سليم

الخوري (الملقب بالقروي) يحس بالغربة ولا تسليه

الجموع الغفيرة حوله لانه لا يسمع منها أنغام لغته، لغة

الام والاهل^(٨٩):

حولي أعاجم يرطنون فما

للضاد عند لسانهم قدر^(٩٠)

لو عاش بينهم ابن ساعدة

لقضى ولم يُسمع له ذكر^(٩١)

ناس ولكن لا أنيس بهم

ومسدينة لكنّها قفر

وإذا نظر بعض الشعراء الى اللغة العربية بالمنظاريين

الديني والقومي، فكان هناك شعراء - واكثرهم من

المسيحيين طبعاً - ينظرون اليها بالمنظار القومي فقط،

لانهم وجدوها قاسماً مشتركاً بينهم وبين المسلمين.

كل هذه الابيات تنم عن الشعور القومي للشعراء

امام اللغة العربية واجلالهم لها واعتبارهم أياها عرى

الوحدة بين العرب على اختلاف عقائدهم.

النزعة القومية وموقف الشعراء العرب منها قبل الحرب العالمية الأولى وفترة ما بين الحربين

ج - تكريم الشهداء والوطنيين وتخليد ذكراهم

إذا كانت البطولة والتضحية من صفات تخلد المضحين والشهداء فمن الطبيعي أن ذكر هذه البطولات يهزه شاعر الشعب القومي ويستغزهم للاستفاضة والنهضة. والشعراء أدركوا هذا الأمر أحسن ادراك ومن هنا لم يكد يخلو ديوان شعر من قصائد تمجد بطولات الشهداء وتخلد ذكراهم. وبما أن سقوط الشهداء في ساحات الجهاد أو ارتحال زعيم وطني يهز مشاعر الأمة القومية، فكان الشعراء بمراثيهم لهؤلاء الشهداء والوطنيين فتحوا مجالاً آخر للنهضة واستنهاض همم الشعب.

فكما نرى أن الثورة العربية الكبرى اندلعت بعد استشهاد أولئك الأحرار (شهداء أيار) وشنقهم على الأعواد بيد جمال باشا بنحو شهر واحد^(٩٢).

ومن الشعراء الذين أعادوا ذكريات تلك الأيام ووصفوا المشانق وذكروا الشهداء، الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي الذي يقول في قصيدته «النائحة»^(٩٣):

على كل عودٍ صاحبٍ و خليل

وفسي كل بيت رنةٌ وعويلٌ

وهل (للعريسي) الجريء و(عارف)

إذا عُذَّ اقطابُ اليراع عديل؟

تمثل فوق العود قيل وفاته

ببيت يؤسي الشعب وهو يقول

إذا مات منا سيد قام سيّد

قوول بما قال الكرام فعول

ومنهم أيضاً أبو الفضل الوليد يبكي على الشهداء في المهجر^(٩٤):

بسلام الشام غادرك الكرام

فعيش الحرّ فيك، أن حرام

لقد كثرت من العرب الضحايا

ولم يهتز في الغمد الحسام

ثم يخاطب الشهداء ويصف شجاعتهم لدى الموت:

ايا صحبي الكرام الأفيذاكم

لئامٌ بعد ما قلّ الكرام

مشيتم باسليّن الى المنايا

وكان لكم على النطع ابتسام

ليحيي العرب قد صيحتم ومثم

فصيححتكم لخسّطتكم دوام

فنحن لدى بسالتكم حيارى

وانستم فوق ذلتنا عظام

على اعوادٍ مرقية رفعتم

مناراتٍ بها يُهدى الانام

ثم يختم قوله بالحكمة التالية:

وربّ ضحية أحييت شعوباً

فكان لها انعتاق واقتحام

أما يوسف العظمة وزير الحربية السورية في عهد الملك فيصل الأول وقائد المدافعين عن دمشق ضد جيش (غورو) الفرنسي والذي استشهد في معركة «ميسلون» وأصبح بطلاً خالداً ورائداً للشهداء في ساحة الجهاد فقد أشاد خليل مردم بك الشاعر السوري بشجاعته وتضحيته في قصيدة مسماة «ذكرى يوسف» ويدافع عن موقفه ضد الاحتلال الفرنسي^(٩٥):

بنا على يوسف إذ حُتم مصرعُه

أحزانٌ (يعقوب) من خافٍ ومن باد

هوى وحلّته حمراء من دمه

كالشمس حين هوت في ثوبها الجادي

فدّى العروبة بالنفس التي كرمت

يا رحمة الله للمفدى والفادي

وأثار استشهاد الشيخ مهدي الخالصي أحد قادة الثورة العراقية ضد الانكليز عام ١٩٢٠م قرائح الشعراء وجعلهم يصفون بطولته. منهم محمد مهدي الجواهري الشاعر الشيعي العراقي الذي يعتبر هذا الشهيد سراجاً وكوكباً سطع في غياهب البلاد^(٩٦):

قومي ألبسي بغداد ثوب الاسى

أن الذي ترجينه غيباً

نقتطف ابیاتاً أخرى لحافظ ابراهيم في رثاء مصطفى كامل زعيم الحزب الوطني يجده ساهراً مازال يدوّى صوته في الاسماع ويدعو الشعب الى الاتحاد والوحدة^(١٠٥):

أيا قَبِرَ هذا الضيف آمال أمة
فكَبِرَ وهْلَلْ والق ضيفك جاثيا^(١٠٦)
عزيزُ علينا أن نرى فيك (مصطفى)
شهيدَ العلا في زهرة العمر ذاويا^(١٠٧)
ولكن فـقدنا كـلَّ شيء بفقد
وهيئات ان يأتي به الدهرُ ثانيا
وكنا نسياماً حينما كنت ساهراً
فأسهدتنا حزناً وأمسيت غافيا^(١٠٨)
شهيدَ العلا، لازال صوتك بيننا
يرنّ كما قد كان بالأمس ذاويا^(١٠٩)
يـنـاشدُنا بـالله ألا تـفرّقوا
وكونوا رجالاً لاتسروا الاعاديا
وهكذا أوقدت الاشعار البطولية لهيب الروح القومية
في الشعب واستزادت روح المقاومة سواء كانت
الاشعار في بطل سقط في ساحة الجهاد او زعيم مات
على فراشه وكان له في حياته اثر كبير في حياة شعبه
ولهذا كثرت قصائد الرثاء لدى الشعراء المعاصرين
ذوي النزعة الاجتماعية منهم حافظ ابراهيم الذي
اعترف بذلك قائلاً:

إذا تصفحت ديواني لتقرأه
وجدت شعر المرثي نصف ديواني
ولئلا يطول بنا الامر نكتفي بهذا معترفين بأن
للشعراء مواقف بارزة في مواضيع أخر كالدعوة الى
الوحدة او مقارعة الاستعمار او.... يتطلب كل واحد منها
مجالاً واسعاً آخر.

وفي الختام نؤكد على حقيقة مضت وهي أن القومية
كانت بين العرب في الفترة التي تناولها البحث حاسة
وشعوراً بينما كانت في اوربا ايدئولوجية ونضيف الى
ذلك ان القومية في فترة اعقت الحرب العالمية الثانية

إن الذي كان سراج الحمى
يشعُ في غيَهِبه كوكبا
قصر من ايامه همهُ

ان يُنقذ الموطن والمذهب
وكان عمر المختار شيخ السنوسيين ورأس
المجاهدين في طرابلس، ظل يقاتل الطليان في سبيل
الدود عن وطنه، حتى قبضوا عليه وأعدموه شتقاً عام
١٩٣١م يرثيه احمد شوقي في قصيدة ويشيد ببسالته
ويعتبره مناراً هادياً للشعوب^(٩٧):

ركزوا رفاتك في الرمال لواء
يستنهض الوادي صباح مساء^(٩٨)
يا ويحهم نصبوا مناراً من دم
يوحي الى جيل الغد البغضاء
جرح يصيح على المدى وضحية

تتلّس الحرية الحمراء^(٩٩)
إن المرثي واشعار البطولة لم تقتصر على الشهداء
وابطال ساحات القتال وانما كانت في نطاق الزعماء
والقادة الوطنيين امثال سيد جمال الدين الافغاني وسعد
زغلول ومصطفى كامل وغيرهم واذا استشففنا دواوين
الشعراء نجد كثيراً من الاشعار البطولية في هؤلاء
القادة يتطلب مجالاً واسعاً غير هذا المجال. الا أننا
نجتزئ ابیاتاً للجواهري في جمال الدين، مخاطباً اياه
وهو يقول^(١٠٠):

هويت لنصرة الحق السهادا
فلولا الموت لم تُطق الرقادا^(١٠١)
ولولا الموت لم تترك جهاداً

فللت به الطغاة ولا جلادا^(١٠٢)
جمال الدين، ياروحاً علياً
تنزل بالرسالة ثم عادا
وانت ازددت من سم زعاف

تدوّقه سواك فما استزادا^(١٠٣)
نضال المستبد يرى انكشافاً
عمايته وعثرته سدادا^(١٠٤)

النزعة القومية وموقف الشعراء العرب منها قبل الحرب العالمية الأولى وفترة ما بين الحربين

أصبحت أيديولوجية لما كان حاكماً على العرب من الظروف السياسية والمناخ الفكري والاجتماعي خاصة بعد ظهور حزب البعث وجمال عبد الناصر والقومية في هذه الفترة لها ميزات خاصة تحتاج الى دراسة اوسع ومقال آخر.

الهوامش

- ١- علي محمد تقوي / اسلام وملي گرايي، دفتر نشر فرهنگ اسلامي، زمستان ۱۳۶۰، ص ۱۴.
- ٢- نفس المصدر، ص ۱۲.
- ٣- فؤاد أفرام البستاني، المجاني الحديثة، الطبعة الثالثة، ج ۱، ص ۱۴۴.
- ٤- عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، دار الشرق العربي / الطبعة الجديدة ۱۹۸۵ / ص ۴۵۳.
- ٥- گال جی بازکلی / ناسيوناليسم قرن بیستم / ترجمه یونس شکر خواه، تهران، نشر سفیر، ۱۳۶۹ / ص ۳.
- ٦- جورج انطونيوس / بقطعة العرب / ترجمة ناصر الدين أسد واحسان عباس / دار العلم للملايين / بيروت / الطبعة الرابعة / ۱۹۷۴ / ص ۷۱.
- ٧- نفس المصدر / ۱۲۰.
- ٨- ديوان ابراهيم اليازجي / ۲۵.
- ٩- عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث / ص ۱۹.
- ١٠- نفس المصدر / ص ۲۱.
- ١١- انظر جورج انطونيوس / بقطعة العرب / ص ۱۶ وحيد عنایت / سیری در اندیشه سیاسی عرب / مؤسسه انتشارات امیر کبیر / تهران / چاپ چهارم / ص ۱۳۷۰.
- ١٢- ضياء الدين احمد / نگاهی بر جنبش ناسيوناليسم عرب / ترجمة حیدر بودرجمهر / وزارة ارشاد اسلامي / تهران ۱۳۶۵.
- ١٣- عمر الدسوقي / في الادب الحديث، دار الفكر، الطبعة السابعة، ۱۹۷۳ / ج ۲ / ص ۱۵۶.
- ١٤- انظر انيس المقدسي / الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث / دار العلم للملايين / بيروت / الطبعة الخامسة / ۱۹۷۳ / ص ۲۱.
- ١٥- عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث / ص ۳۹.
- ١٦- نفس المصدر ص ۴۰.
- ١٧- انيس المقدسي / الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث / ص ۲۴.
- ١٨- المصدر نفسه / ۲۴.
- ١٩- احمد عبد الله فرهود / تاريخ شعراء العربية / دار القلم العربي /

- الطبعة الاولى / ۱۹۹۸ / جزء ۱۳ / ص ۵.
- ٢٠- عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث / ص ۳۱.
- ٢١- نفس المصدر / ص ۳۴.
- ٢٢- انيس المقدسي / الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث / ص ۲۲.
- ٢٣- ديوان خليل مطران / دارمارون عبود / بيروت / ج ۱ / ص ۱۵۴.
- ٢٤- انظر احمد محمد الخوفي / وطنية شوقي / الهيئة المصرية العالية للكتاب / الطبعة الرابعة / ۱۹۷۸ / ص ۴۳۷.
- ٢٥- المؤيد ۹ يونيو ۱۸۹۷ منقول عن احمد محمد الخوفي / وطنية شوقي / ص ۴۴۲.
- ٢٦- انيس المقدسي / الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث / ص ۳۶.
- ٢٧- ديوان حافظ ابراهيم / ج ۲ / ص ۷.
- ٢٨- احمد ابو حاقه / الالتزام في الشعر العربي / دار العلم للملايين / الطبعة الاولى / ۱۹۷۹ / ص ۱۴۷.
- ٢٩- جورج انطونيوس / بقطعة العرب / ص ۱۶.
- ٣٠- انظر امين سعيد / الثورة العربية الكبرى / مكتبة مدبولي / ج ۱ / ص ۳۱۴.
- ٣١- احمد ابو حاقه / الالتزام في الشعر العربي / ص ۱۷۲.
- ٣٢- ديوان الزهاوي / دار العودة / بيروت / ۱۹۷۲ / ج ۱ / ص ۱۷۸.
- ٣٣- اليراع: الجبان والضعيف.
- ٣٤- المشير ۲۱ ابريل ۱۸۹۹ منقول عن شفيق البقاعي / ادب عصر النهضة / دار العلم للملايين / الطبعة الاولى / ۱۹۹۰ / ص ۴۳.
- ٣٥- نفس المصدر وانيس المقدسي / الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث / ص ۲۲.
- ٣٦- ديوان ولي الدين يكن / ۱۹۰ منقول عن سامي الكيالي / ولي الدين / دار المعارف بمصر / ص ۴۱.
- ٣٧- محمد عبد المنعم خفاجي / قصة الادب في مصر / بيروت / دار الجيل / الطبعة الاولى / ۱۹۹۲ / ج ۵ / ص ۱۴۸.
- ٣٨- ديوان معروف الرصافي / ج ۲ / ص ۲۳۳.
- ٣٩- نفس المصدر / ص ۲۲۹.
- ٤٠- نخوتنا: تعهدتنا.
- ٤١- الضمير في (ها) يرجع الى (نفوس) في البيت السابق.
- ٤٢- لفحت الناقة: ضربها للفحل فحملت والحيال: عدم الحمل، يريد انك هيجت تلك الحرب بعد أن كانت ساكنة.
- ٤٣- عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث / ص ۲۱.
- ٤٤- المصدر السابق / ص ۴۴۷.

النزعة القومية وموقف الشعراء العرب منها قبل الحرب العالمية الأولى وفترة ما بين الحربين

- ٤٥- حميد عنایت / سیری در اندیشه سیاسی عرب / ص ٥٢.
- ٤٦- المصدر السابق / ١٨٣.
- ٤٧- المصدر السابق / ص ١٧٨.
- ٤٨- راجع احمد ابو حاقه / الالتزام في الشعر العربي / ص ١٧٣ و ١٧٤.
- ٤٩- نفس المصدر / ص ١٧٤.
- ٥٠- نفس المصدر / ص ١٧٤.
- ٥١- جهينة هي قبيلة عربية من قبائل قضاة التي كانت تسكن بين يثرب وحدود مصر.
- ٥٢- عمر الدسوقي / في الادب الحديث / ج ٢ / ص ٣٧٥.
- ٥٣- الصيد: ج الاصيد: الرجل الذي يرفع رأسه كبراً، المئذ.
- ٥٤- القبة: ج القبة بناء سقفه مستديرة مقعر: هامات: ج الهامة: رأس كل شيء.
- ٥٥- ديوان الاثري / المجمع لغوي العراقي / الطبعة الاولى / ١٩٩٦ ج ١ / ص ٢٩٦.
- ٥٦- النشر: الریح الطيبة.
- ٥٧- الصهب: ج الاصهب: من خالط بياض شعره حمرة - لعناتين: ج العثنون: اللحية والاعداء صهب لعناتين وان لم يكونوا كذلك - استشب لهم الامر: استقام واستمر.
- ٥٨- ديوان «الحان النهب» ص ٢٩ منقول عن عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث / ص ٢١٢.
- ٥٩- عامل: جبل في لبنان اكثريه اهله من الشيعة واصل الكلمة عامة وهي قبيلة نزلت تلك المنطقة فعرفت بهذا الاسم.
- ٦٠- ديوان القروي / منشورات جروس برس / طرابلس / ص ٣٥٤.
- ٦١- هلال ناجي / شعراء بين المعاصرون / منشورات مؤسسة المعارف / بيروت / الطبعة الاولى / ١٩٦٦ / ص ٢٨.
- ٦٢- ديوان حافظ ابراهيم / ج ١ / ص ٢٦٨.
- ٦٣- اي انتسب الى أي الامتين شئت فكلتاهما في العلاء والحسب سواء.
- ٦٤- الهلال: شعار الدولة العثمانية / وجب: يجب: اضطرب وهو هنا كناية عن الاشفاق على كلتا الامتين والرعاية لهما والحرص عليهما.
- ٦٥- يريد أن الامتين تجمع بينهما امومة واحدة وهي اللغة وابوة واحدة وهم العرب.
- ٦٦- لم أجد هذه الايات في ديوان الشاعر فنقلتها عن البقاعي في كتابه «ادب عصر النهضة» ص ٤١.
- ٦٧- دار الكتاب العربي / بيروت / الطبعة الرابعة / ١٩٩٣ / ص ٢٤٢.
- ٦٨- انيس المقدسي / اعلام الجيل الاول / بيروت / ١٩٧١ / ص ٤٤٨.
- ٦٩- محمد هدار: تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان / دار الثقافة / بيروت / ١٩٧٢ / ص ٥٤.
- ٧٠- نفس المصدر / ص ١١٨.
- ٧١- حميد عنایت / سیری در اندیشه سیاسی عرب / ص ١٩٤.
- ٧٢- عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر الحديث / ص ٢١٧.
- ٧٣- ديوان حافظ ابراهيم / ج ١ / ص ٢٥٣.
- ٧٤- تشويقيات / ج ١ / ص ١١٦.
- ٧٥- انيس المقدسي / الاتجاهات الادبية في لعنة لعربي الحديث / ص ١١٣.
- ٧٦- نفس المصدر / ص ١٢٩.
- ٧٧- عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث / الخامس / ص ٢٢٠.
- ٧٨- ديوان حافظ ابراهيم / ج ١ / ص ٢٥٣.
- ٧٩- رجعت نفسي: تأمنت: الحصة: الرأي والعقل. احسبت حباتي: عدتها عند الله في يدخر. يقول على لسان لغة عربية التي عدت لي نفسي وفكرت في كل اليه امري فاسأت الضم بقدرتي وكدت اصدق مارموني به من تقصير وناديت الناطقين بي ان ينصروني فدم اخدمهم جميعاً فادخرت حياتي عند الله.
- ٨٠- العدة: لاعداء. يقول: التهموني بانني لا اؤد عن حين الي في ريعان شببي. كني بانعم هنا عن ضيق اللغة وجودها.
- ٨١- بريد «بالعريس» الانفاظ لمحبة الحسنة. وأد البنت: دفعها حبة.
- ٨٢- لثوثة: عدم الإيابة ونعاب لافاعي: سمها: الثقات: الماء العذب.
- ٨٣- ديوان لبناء: ٩١ منقول عن محمد مصطفى هدار: تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان / ص ٦١.
- ٨٤- ضل عليه: اشرف.
- ٨٥- الفجر الصادق: ٢٧ منقول عن المصدر السابق.
- ٨٦- تنجهم له: تستقبله بوجه عابس.
- ٨٧- ديوان خليل مردم بك / دار صادر / بيروت / الطبعة الاولى / ١٩٦٢.
- ٨٨- العرب من الابل أو الخيل: كرائم سائله من الفجعة: الاعلاج: علاج: نعيم: الحمار.
- ٨٩- ديوان القروي / ص ٢٣٤.
- ٩٠- يרטون: يكلمون بالاعجمية.
- ٩١- ابن ساعدة: المراد قس بن ساعدة الايادي خطيب معروف جاهلي.
- ٩٢- عمر الدقاق / الاتجاه القومي في شعر العربي الحديث / ص ٤٢٠.
- ٩٣- ديوان / ج ١ / ص ١٧٨.
- ٩٤- ديوان الانقاس الملتية / ص ٧٢ منقول عن الاتجاهات الادبية / انيس المقدسي / ص ١٤٤.
- ٩٥- ديوان خليل مردم بك / ص ١١٩.

النزعة القومية وموقف الشعراء العرب منها قبل الحرب العالمية الأولى وفترة ما بين الحربين

- ٩٦- ديوان محمد الجواهري / ص ١٦.
- ٩٧- الشوقيات / ج ٣ / ص ١٧.
- ٩٨- ركز اللواء: غرزه في الارض.
- ٩٩- الحرية الحمراء: هي المكتسبة بالدم.
- ١٠٠- ديوان الجواهري / ج ٢ / ص ١٩٣.
- ١٠١- هَوِي، يهوي: احبته واشتهاه.
- ١٠٢- جالده: مجادلة وجلاداً بالسيف: ضاربه به والجلاد، معطوف على «جهاداً» في الشطر الاول.
- ١٠٣- السم الزعاف: السم القاتل بسرعة.
- ١٠٤- نضال المستبد: بدل من «سم زعاف» في البيت السابق.
- ١٠٥- ديوان حافظ ابراهيم / ج ٢ / ص ١٤٩.
- ١٠٦- جثا الرجل بجثو: جلس على ركبتيه والمراد هنا: الخضوع.
- ١٠٧- الذأوي: الذابل.
- ١٠٨- الغافي: النائم.
- ١٠٩- المعروف (دوى) بتشديد الواو، واسم الفاعل منه: مدؤ واما (دوى) بالتخفيف فهو استعمال شائع في كلام اهل العصر.

المراجع والمصادر

- ١- ابو حاقه، احمد. الالتزام في الشعر العربي. دار العلم للملايين، الطبعة الاولى، ١٩٧٩.
- ٢- الاثري، الشيخ بهجة، ديوان، مجلدان، المجمع اللغوي العراقي، الطبعة الاولى، ١٩٩٦.
- ٣- افرايم البستاني، فؤاد، المجاني الحديثة، الطبعة الثالثة.
- ٤- انطونيوس، جورج. يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين أسد واحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٤.
- ٥- باركلي، گالين جى. ناسيونالسيوم قرن بيستم، ترجمة يونس شكر خواه، نشر سفير، تهران، ١٣٦٩.
- ٦- البقاعي، شفيق. ادب عصر النهضة، دار العلم للملايين، الطبعة الاولى، ١٩٩٠.
- ٧- حافظ ابراهيم، ديوان، مجلدان، دار العودة، بيروت.
- ٨- الصوفي، احمد محمد. وطنية شوقي، الهيئة المصرية العالمية للكتاب، الطبعة الرابعة، ١٩٧٨.
- ٩- خفاجي، محمد عبد المنعم. قصة الادب في مصر، دار الجيل، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٩٢.
- ١٠- الخوري، بشارة (الاخطل الصغير)، ديوان دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٣.
- ١١- الخوري، رشيد سليم (القروي)، ديوان، منشورات جروس

* * *